

والظل الظليل ، ثم يسير لا يحمل معه قربة من ماء ، ولا يترود زائداً ، لأنه لا يعلم أن الطريق أمامه شمس كاه وعطش وجوع وضلال ، ولا يدَّ له من سلوك هذا الطريق ...

كانت حياتنا كالبركة الساكنة ، ولكن الأيام ألفت في بركتنا حجراً كبيراً ، أزعج سكوتها ، وعكس ماها ، فلم تصف من بعدُ أبداً ، وكان الحجر الذي رمتنا به الأيام غلاماً قدراً حله سيدي من أزقة بيروت ...

وهنا تبدأ القصة التي أروي لك مقاطع منها ، لأنها لا تروى كلها : ومن يستطيع أن يروي قصة حب ، بكل ما فيها من عواطف وأفكار ، وآلام وآمال ؟

إن النفس البشرية أعمق من البحر ، فمن دخل البحر غرق فيه فلم يخرج منه ، ليخبر عما رأى ، ومن وقف على الشاطئ لم يلمس منه إلا الريد الذي يحمله إليه الموج ، وإن أعظم القصص التي كتبها الأدباء ، لم تكن إلا زبداً يلقيه الموج إلى الشاطئ ، أما اللجة الكبرى فلم يصل إليها قلم أديب ، ولا غاص على جواهرها ، ولا وصل إلى عجائبها .

هل رأيت الأفق عند الغروب ، والشمس تلونه كل لحظة بلون ، تخلق فيه عجائب لم تعرفها الأرض ثم تبيدها وتأتي بغيرها ، وتخط فيه خطوطاً سحرية بألوان ما عرفها الفن ثم تحوها وزعم سواها ، كذلك النفس البشرية ، إنها تبني وتهدم في (الثانية) من الأفكار والمواطف ، والخواطر والتأملات ، ما يعجز أدباء الأرض جميعاً عن حبسه في القرباس . فكيف يصف حياة امتدت أربعين سنة ، من عجز عن وصف حياة ثانية واحدة ؟ وكيف يصور ألوان النفس الخفية من لم يستطع أن يصور ألوان الأفق الظاهرة ؟

إن الأدباء لم يأخذوا من قصص الحياة إلا حوادثها ، وما الحوادث ؟ ما خطرها ؟ إنها جسم القصة ، فهل رأيت مجاً يقتل جيبته ثم يمانق جسدها بحسب أن الجسد هو الحبيبية ؟ هذا ما يصنعه الأدباء !!

أروي لك حوادث هذه القصة وأدع لك أن تفهم ما وراءها ، وأن تلمس يد بصيرتك روحها حتى لا تكون جسماً بلا روح ،

على ثلوج (حزرين)

للاستاذ على الطنطاوي

— ٢ —

—————

قالت :

بدأت هذه القصة منذ أربعين سنة ، ولم تكن هذه الضهور^(١) موحشة مقفرة كما زارها اليوم ، ولم يكن القصر مهجوراً خرباً ، بل كان حافلاً بالأنس ، قياناً بالنعيم ، يرح فيه الصبا ، ويضحك الطهر ، وإن كان قد خلا من هيبة السلطان ، وهجره الجند والأعوان ، بعد ما قضى بـ (مذبحه عين داره)^(٢) الأسماء التتوخيون سادة الجبل ، ودالت دولتهم وذهبت أيامهم ، فلم يبق لسيدى الشيخ ناصر رحمه الله (مشيخة) بدم على هذى البقاع ، وكان هو (شيخها) وما كنها — فنا خلا من النيل والفضل ، ولا هجره المافون ولا الواقدون ، بل كانوا يؤمنونه أبداً فينصرفون وقد حفيل وطاب كل واحد منهم بما يشتهي وما يريد من مال الشيخ ومن طيب قلبه ، ونبل نفسه ، وإشراق وجهه ، فكان مجده في عزله أكبر من مجده في إمرته .

وكانت ربعة القصر قد مضت جميلة طاهرة كزنبقة الجبل ، شابة ناضرة كطلوع الربيع ، وكانت تنشر عطر الحب أينما سارت فتترك حبها في كل قلب ، فلما تولت أبتت في كل قلب أعطر الذكريات ، وأحر اللوعات ، ورعى سيدى الشيخ عهدها ، وحفظ ودّها ، فلم يحمل محلها من قصره أو فؤاده امرأة غيرها ، ووقف نفسه على ولديها : علام وليلي ، فكان لها من بعدها أبا وكان لها أما ، ولم يكن في القصر امرأة إلا أنا ، وكنت غضة الإهاب ، ربانة الشباب ، فكنت أقوم على خدمتهما وترتيبهما . وكنا نعيش سماء لا ندرى ما الموموم ، ولا نسأل عن القد ، كنا كالمسافر يقف على العين الباردة ، يتمتع بالباء العذب ،

(١) الضهور جمع ضهر : وهو ظهر الجبل من على لبنان التميمي .

(٢) يسأل عن خبرها الرجل الذي لم يبق من سلالة الأسماء التتوخيين

إلا هو وآله فهو ذو الامارتين : إمارة الأدب وإمارة النسب ، سديتنا

أبو قيس عن الدين علم الدين التتوخى .

إلى الشيخ فيخبيء وجهه في طيات جيبته ويبيكي ، يبر بالسمع عن
الشكر الذي يقصر عن التعبير عنه اللسان .

وكانت ليلي ترمقه باسمه ، أما علام فكان يأكل قلبه البغض
ويجلس وجهه الغضب .

وصرت الأيام ، وأفته ليلي إذ كان في مثل سنهما وألفها ،
أما علام فلم تزد له الأيام إلا كرهاً ، وكان الشيخ قد اشترى
لكل من الثلاثة فرساً ، فأقبل علام يوماً على هاني وكان يسير
بفرسه ليلي ، فقال له آمراً :

— انزل عن الفرس وهاته ، فإن فرسي قد أصابه الراج .
فأني ، فسبّه وأخذ الفرس منه قسراً ، وآلمه عدوانه عليه ،
وأساء كرم الوالد أصله ، وأنه لقيط من الطريق ، وأن (علام)
هو الولد والوارث والفرس فرس أبيه ، وأنه أكبر منه سنًا ،
وأقوى ساعدًا ، فهجم عليه يريد أن يسترجع الفرس منه فضربه
علام على وجهه وصدره ، ثم أخذ حجراً ضخماً فرماه به ، فشجه
وكاد يقضى عليه ، لولا أن أقبلت ليلي تدافع عنه بسوطها ، تنزل
به على وجه أخيها حتى حجزته عنه ...

في هذه اللحظة ولد الخلق الجبار الذي اسمه الحب .

أشقت عليه ، وشفقة الفتاة على الفتى الجليل بذرة الحب تختفي
في قلبها ، فلا تحس هي بها ، كما تختفي حبة الصنوبر الصغيرة في
حدود الجبل تطوؤها الأقدام ، وتتجاوزها الأبصار ، ولا يدري بها
أحد ، ثم لا تلبث أن تكون شجرة باسقة الفرع ، ممتدة الأصل ،
شاخحة الهام .

وجعلت تواسيه فيمرض عنها ، يستعجى برجوله (الصغيرة)
أن تراها كريمة مهزومة ، وهي تلح عليه ، حتى قالت له :
— هلم نقطف (أزهار الجبل) .

فأني . فرفت ذيلها وانحنت له متشبهة بالمقاتل على طائهن
في تلك الأيام ، فاستلّت بدلالها قضبه ، وابتسمت فأنارت
بابتسامتها قلبه ، فأطاعها وقلبت أنوثها رجولة الرجل ... ولا تزال
المرأة غالبية ما حاربت بالأنوثه ، فإن زهدت فيها وحولت أن
تجاري الرجل في ميدانه ، وتسايقه في حلبته ، وتقاتله بملاجه ،
اسطسكت ركبثاها ، وكلت قدماها ، وهجرت يداها ، وسقطت .

وأن تسممها بأذن نفسك لا بأذن رأسك ، فإن النفوس متشابهات
وربّ إشارة أو كلمة أدلّ عند النفس من كتاب ضخم عند العقل .

بدأت حوادث هذه القصة يوم عاد سيدي الشيخ من بيروت
راكباً فرسه ، إذ لم تكن قد وطئت حرم الجبل الأشم هذه
السيارات ... وقد لفّ عباةته على غلام وضعه بين يديه لا يبدو
منه إلا رأسه ، فلما وصل كشفها عنه فإذا غلام (شجاع) عمره
نحو عشر سنين ، وسخ الجسم ، قذر الأسما ، فقال لنا :

— إني وجدته في رأس بيروت بهم بأن يلتقي نفسه في البحر
فحملته مني

وجعل الولد يتفقت منه كأنه قط وحنى يريد أن يفرّ من
الصيد ، فشد يده عليه ، ودفنه إلى وقال لي :
— خذيه فأطمئنه .

وباليتة تركه يرمي بنفسه في البحر ، أو باليتة خلاه ليهرب
ولا يعود ، إذن لما شقينا به ولما شق بنا أربعين سنة كوامل ، لم
نستمتع فيها بشباب ، ولم نعرف فيها العمادة ولا الاطمئنان .

وسحبته من ذراعه ، وهو يحاول التملص مني ، وبمض
يدي ، وينطحني ويثبت قدميه مستعصماً بالأرض كاتيس النيد ،
حتى بلغت به المطبخ ووضعت له الطعام فأكل أكل من
لا يخشى القز (١) ، فلما شبع عدت به إليه — وكان يحدث الولدين
ويدفع إليهما هداياه التي طلبها منه : القيثارة للصبي والسوط
المرصع اليد للبت — فلما رأته ليلي ، قالت :

— بابا . إنه قذر .

ورحمته . أما علام فقد أبغضه منذ اللحظة الأولى .

فقال لي سيدي الشيخ :

— خذيه فأغسل جلدّه ، وأبسه .

فعلت فرأيت قد استحال إنساناً آخر ، وخيل إلى أني لمحت
على وجهه وميض نيل قديم ، فلما أنعمت النظر فيه وجدته قد
انطلقاً وعاد وجهاً عادياً للعلام وضى رائح الحميا .

وعدت به إلى الشيخ ، فسرّ به وقال :

— لقد أسميته (هاني) وجعلته مني كوالدي .

ونظرت إلى الولد فأبصرت هيفه تلمعان ، ثم رأيت يسرع

(١) القز من الساس التميع وفي العائل : (كان يحلى عطاء

من لا يخشى القز) .

— انظر إلى ما تحت قدميك .

فنظرت وإذا أفق منظر وقمت عليه عينا سامح وأبدعه .

قالت :

— هذا هو المشهد الذي كنت تراه في ظلام الليل أسود مخيفاً ،

يبعث الرعب ، ما تبدل ، ولكن غابت عنه الشمس فاستحال جماله

قيحاً ، وكذلك الدنيا : تكون في عين سوداء وفي عين بيضاء ،

وتكون يوماً حلوة حبيبة ، ويوماً مرة كريمة ، ولقد أسودت

دنياً منذ مات سيدي الشيخ ، وغربت عنها شمسه الضيئة فشمها

الظلام ، وذهبت منها حلوة نفسه ، فصارت مرة لا تطاق .

تبدت هذه (الدنيا) مذمات ، وشب الصغار ، فلم يمد في

القصر ثلاثة أطفال يلعبون قد ساوى بينهم كرم الوالد ، بل سادة

وخدم ، وظالم ومظلومون ، سار عمام سيد القصر ، فكشفت

منه السيادة عن نفس عبد ، وأظهر السلطان منه طبع سوقة ،

فاستبد بأخته واستأثر بالخير من دونها ، وجعل هاني خادم

الاصطبل ، وسائس الخيل ، يمسك له فرسه ، وينحني له ليضع

نعله اللينة على كتفه ليركب ، ويمدو معه في ركابه ، وبذيقه

الوان الثل ، ويتمدد أن يحمله صنوف الأذى ، وهو صابر من

أجل حبه ، وهي ترى هذا فيقطع نفسها حشرات ، ويمزق فؤادها

أن ترى حبيبها و (ملكها) ذليلاً متهماً ، ولا تدري ما اللذة ولا

تعرف طعم الحياة إلا إذا غاب الأخ ، فهرعت إلى الصخرة تمسقه

أو يسبقها إليها ، فألقت بنفسها بين ذراعيه ، ما نيالي حطة منزلة ولا

وساخة بزته ، لقد كانت هذه الصخرة ملاذهما ، رعش هواهما ،

يستندان إليها ، فإذا الصخرة التي كانت صمداً خرساء ، قد عاشت

بالحب ، وعندها حياتها الخالدة ، فصارت قلباً كبيراً أحنى من قلوب

الأممات ، ولساناً أحنى من السنة المشاق ، وعز كل شيء حوالها

وغلا ، فالشمس عندها أضوا في عينهما من شمس القصر ، والليل

أعذب ، والورد أطر ، والثلج أطر ، وكان يحس وهو معانقها

أن هذه السفوح التسلسلة إلى سيف البحر ، وهذه القرى المنثورة

على السفوح ، وهذه الأحراج المطيفة بالقرى ، وهذه السواقي

المنبثقة من الأحراج ، وهذه الدرر العالية ، وهذه الحدور المتتالية

وهذا البحر العظيم الذي يمتد حتى يصعد إلى السماء أو تنزل هي

إليه ، فيكون البحر سماء والماء ماء — كل ذلك ملك له وحدها

ويشمر بالقوة قد ملأت نفسه حتى كادت تنفجر نشاطاً

واندفاعاً ، وبالماطفة يكاد يتمزق من طغيانها قابه ، وأنه لم يمد

ومسحت دمه ، وعصبت جرحه ، وأركبته فرسها ، ومشت

به المهوربي ، تاق في أذنه كلاماً من كلام الطفولة الماشقة ، رفقه

في عين نفسه ويحقق فيه عندها ما تمناه هي في رجل أحلامها ،

ولكل بنت حلم ولو كانت بنت عشر ، ولا يخلو حلم بنت من رجل ،

ولو كان (رجلاً) ابن عشر حتى إذا اقتربا من هذه الصخرة التي

تراها قائمة على سفير الوادي ، كأنها قلعة من قلاع الجن ، أمامها

خندق لا تبلغ قرارته الشياطين ، ولا تصل إلى ذروته المردة ،

قالت له :

- اسمع ما أنت بالوضيع ولا اللقيط ، أنت سليل الأشرار

التنوخيين ، أنت الذي نجا يوم (عين دارة) وهذا قصر أجدادك .

فنظر مشدوهاً ، وقال : هذه صخرة ا

— قالت : كلا . أنتم النظر إنها قصر أجدادك ، وهذا

الفارس الأسود بالباب يملك من دخوله فخذ هذا السيف واعد

إليه فاقتله ، أعد .. أعد ..

— قال : هذا سوط ا

فصاحت متحمسة ، وضربت الأرض دلالة بقدمها ، وانثرت

شعرها الذهبي ، وزادها الغضب جمالا على جمالها ، فأراه غضبها

الصخرة قصراً ، والسوط سيفاً ، وأى رجل لا تمدعه الجميلة عن

الأوهام حتى يراها حقائق ، ولا يندفع من أجلها إذا دفتته

إلى المهالك ؟

وعثر به الفرس ، وكاد يهوى إلى الأعماق المظلمة ، ولكنه

قفز إلى الأرض ، وانطلق يقارع بسوطه الهواء ، وهو يرى أنه

يخالده الفارس الأسود ، حتى إذا قتله .. مسح سيفه من دمه ..

ووضع قدمه على عنقه .. وصرخ بها صرخة الظافر ، فأقبلت

إليه وقالت :

— أنت الملك ، وأنا أملك .

— قال : بل أنت مليكتي .

وأنحني أمامها قبيل يدها ، وذهب يقطف زهور الجبل ليصنعها

لها تاجاً ..

وغما الحب الوليد فجأة ، فكانت له قوة هذه الصخرة وسورها ،

وله طهارة هذه الثلوج وتقاؤها ، وله خلود هذه الجبال وتقاؤها .

قال صديقي :

وسكنت المعجوز حيناً ، ثم قالت لي :

الروحي ؟ أإنها كالخلل لأمشاط ، يشربه فيحرق أمعاءه ،
ويزيد ظمأه .

— فتقول له : يا ليتنا نموت الآن يا هاني ، حسبنا هذا من
العمر . أو يا ليت الزمان يقف فلا يدور أبداً ، ولا نمود إلى القصر
ولا نرى الناس .

— فيقول : ما الناس ؟ وما القصر ؟ كله باطل ! كل
ما عند الناس أو هام الحق هنا ، هذا وحده الحق ، هذا هو
الواقع ، هنا الدنيا !

ويعجز النطق ، وتضيق اللغة ، فيشكلان باللغة التي يفهمها
البشر كلهم ، لأن لغة البشرية ليست لغة أم ولا أقوام ، اللغة التي
ليس فيها إلا كلمة واحدة ولكن معانيها أوسع من كل ما حوت
العالم ، اللغة التي لا يفهم الرجل عن المرأة ، ولا تفهم المرأة عن
الرجل ، إلا بها : لغة القبل !

وتكون وسوستها الخائفة أبلغ من كل ما قال الشعراء
(البنية في السد القادم)
علي الطنطاوي

الهندسة القروية بالدقهلية

تقبل عطاءات عن

١ — إنشاء دورات مياه مساجد
نواحي منية محلة دمنة وربو عوام وكفر
طناح مركز المنصورة وجديدة المنزلة
مركز المنزلة لغاية لثاني شهر أغسطس
سنة ١٩٤٧

٢ — إنشاء دورات مساجد نواحي
الصقين مركز ميت أشناوميت معاند مركز
أجاو كفرالبدماص بالمنصورة لغاية لثاني شهر أغسطس
سنة ١٩٤٧ ويقدم الطلب على ورقة
تمتة فئة ثلاثين ملياً للحصول على الشروط
والمواصفات نظير دفع مبلغ جنيه مصري
واحد خلال مائة مليم أجرة البريد عن
كل عملية . ويمكن الاطلاع على الرسومات
بالادارة الهندسية بالمنصورة ٧٥٤٦

يحمل السكون والانطواء على نفسه بعد ما حركه الحب ؟ فهو
يريد أن يصنع المعجزات ، أن يزج الجبال ، أن يكون قائداً فيفتح
بجها الأرض ، أن يكون شاعراً فيملأ بتقديسها الأسجاع ، أن
يكون كاتباً فيخلدها بروائع الآداب : بكل مقالة هي أعظم من
قلعة بشيدها ملك ، وأمن منها بناء ، وأعلى ، وأبقى على وجه
الدهر ، تتخرب القلاع وهي باقية ، وتنسى أسماء الملوك ، وأسماء
قائلها درر في صحائف التاريخ ، وجمال للماضى ...

وتنالها من خمرة الحب مثل نشوته ، وتغيب معه في سكرة
الغرام ، فتمس وشفتها على خده :

— هل في الدنيا أسعد منا يا هاني ؟ هل في الوجود متعة
أعظم مما نحن فيه ؟

— فيقول : نحن الوجود يا ليلي ، نحن المحبة والمحبة سر
الوجود . هذه الصخرة ما رست هنا منذ الأزل إلا أتأوى إليها ،
هذه السفوح ما بسطت إلا لتلطف عليها ، والقمر ما طلعت من وراء
الأفق إلا ليتنظر إلينا ، والنجوم ما أطلت من فرج السماء
إلا لتناجينا ، والفلك كله يدور من حولنا . نحن قطب الوجود ،
أنا وأنت يا ليلي . لقد كنا متحابين من قبل ان نلتقي ، وقبل أن
نولد ، وسنبتق متحابين بعد أن نموت ، وهذا هو الحب .

الحب أن يعرف الحبيبة قبل أن تقع عليها عينه ، ويسمع باسمها
أذنه : يعرفها في سبحات التأمل في ليالي الوحدة ، في توران
الميل في أعصاب الشباب ، في خفقات القلب للجمال ، في تطلم
الفكر للمجهول ، في فراغ النفس ، في صراخ الأعصاب ، في
كل فرحة ، وفي كل ألم ، وكل زهول هذا هو الحب الضال
الذي لا يعرف طريق الحبيب

ليس الحب ضمة ولا شمة ولا قبلة ، الحب أن يرى المحبوبة
فيحس في نفسه جوعاً سماوياً إليها ، رغبة جامعة في أن يفتح قلبه
ويضمه فيه ويضمه عليها ، الحب أن تقنى هي فيه ، وأن يفنى هو
فيها ، أن لا يفرق بين الحبيبين الزمان ولا المسكان ولا البيوت
ولا الأهواء ، فيكون أبداً معها ، هواها هواها ، وميوله ميولها ،
ويكون في رأسه صداعها ، وفي معدته جوعها ، وفي قلبه مسراتها
وأحزانها ، وأن تكون له ويكون لها ، وأن يدخلها معاً مصنع
القدرة الإلهية مرة ثانية ويخرجها وقد صار إنساناً واحداً ، في
جسمين اثنين . فأين ترى جرعات اللذائذ الحسية هذا الظمأ